الشيب والشباب

بقلم: السيد محمد حسين اسماعيل

لعل انقضاء عهد الشباب ؛ وبدايته عهد الشيب والكهولة ، اول نذير على ابتداء النهاية ؛ واول جرس يقرعه الزمن تنبيهاً للانسان الغافل ؛ وايقاظا للفكر السادر ، وكأن الشعرة البيضاء تقول لصاحبها : انا مقدمة الخاتمة فاستعد ! وعلى ذلك كان عهد الشباب محبوبا ، ليتمنى الانسان دوامه أو اطالة عهده ، وكان عهد الشيخوخة مثيراً للحزن والالم ، لانه تنبيه بقرب النهاية .

ولعل موضوع الشيب والشباب اكثر المواضيع التي عالجها الشعراء أو تحدثوا عنها ، فقد لا تقرأ ديواناً لشاعر قديم أو حديث إلا وطالعتك حسرات الشاعر على الشباب المنصرم ؛ وتأففه من الشيخوخة المؤلمة .

ويختلف أولئك الشعراء في طرق تعبيرهم عن الشيب والشباب تبعاً لحالتهم وشاعريتهم : فقد اتفقوا جميعاً على الشكوى والتذمر واختلفوا في طريقة التعبير واظهار العواطف ، وفي ذلك الاختلاف مجال التأمل والنظر .

افتن الشعراء في وصف اعراض الضعف التي تلازم الشيخوخة من ضعف البصر وانحلال الجسم ، وفقدان قابلية العمل ، والتوكؤ على العصا اثناء السير ؛ وقد اجاد بعضهم في وصف تلك الاعراض وصفاً بليغاً مؤثراً .

قال ابن حمديس يتحدث عن عصاه التي يتوكأ عليها :

كأنها وهي في كفي اهش بها على الثمانين عاما لا على غنمي

وقد اجاد في ابداع صورة جديدة ، لم يسبقه اليها احد ، حين اخبرنا انه يهش بعصاه على سنينه التي سارت امامه ؛ لا على غنمه الذي يرعاه .

أما الشاعر العبقري المصور ابن الرومي ، فقد وصف الشيب بابيات اكثر جودة حين قال :

فشيب اخي الشيب امنيـة اذا ما تناهى اليهـا هلع

وهذا منتهى الحق والصدق ، فكل انسان يتمنى طول العمر والسلامة ، ويتمنى ان يعيش في رغد حتى يصل الى ارذل العمر فاذا بلغ الشيخوخة هلع منها ، وعدها نذيراً بقرب النهاية ؛ واخذ في التحسر على الشباب الذاهب ؛ وعقب ابن الرومي بقوله :

أذاة المرء طـالت به مدة علا الشيب مفرقه أو صلع

وليس الامر كذلك . فلو كان كره الشيخوخة مقصوراً على جلبها الشيب أو الصلع لهان الامر ، ولكن هناك اشياء اخرى اغفلها ابن الرومي ؛ وذكرها شاعر آخر بقوله :

وكنت أمشي على رجلين منتدأ فصرت امشي على اخرى من الشجر

وقد جعلت ارى الشخصين اربعة والواحد اثنين مما بورك البصر (١)

وذلك هو الضعف التام في الجسم والبصر .

وعاد ابن الرومي فعبر عن هذا المعنى في صورة اخرى اكثر طرافة وجودة ، فقد قال :

اقول وقد شابت شواتي وقوست قناتي واضحت كدنتي تتخدد

وبورك طرفي فالشخوص حياله قرائن من ادنى مدى وهي فرد

وعسى ان لا يغرب عن البال ما في قوله (بورك طرفي) من التهكم اللاذع ؛ اذ كيف يبارك طرفـــه الاعشى الذي يريه الاشخاص والصور وهي مضاعفة ؛ وهو تهكم طريف نجده عند ابن الرومي كثيراً .

أما الشريف الرضي فانه يقول عن الشيب .

ارنو الى يقق المشيب فلا ارى الا قواضب للرقاب تسلل

ويقول ايضا :

وما جزعي ان حال لون وانما ارى الشيب عضباً قاطعاً حبل عاتقي

فهو يعتبر الشيب كالسيف المصلت على الرقاب ، فلا أمن ولا راحة .

وروى ابن رشيق في العمدة ، بيتاً مفرداً عن الشيب ، نسبه للامام الحسن عليه السلام ، وفيه يتحدث عن الخضاب ؛ وهو :

نسود أعلاها ؛ وتأبى اصولها فليت الذي يسود منها هو الاصل

يريد ان الاطراف تقبل الخضاب ، أما جذور الشعر فتابى الا البقاء على الشيب ، ونحن نستبعد نسبة هذا البيت ، ونعتقد انه لبعض المتأخرين من الشعراء ، لظهور الصنعة فيه .

وقد رأينا كيف افتن الشعراء في التنفير من الشيخوخة ، ووصف عيوبها وآلامها ؛ وعلينا الآن ان نتسائل : هل الشيخوخة مكروهة الى هذه الدرجة ؟ كلا فليس الامر كذلك ، وان من الشعراء من دافع عن الشيخوخة وطلب لها البقاء والدوام لما فيها من جلال وكمال وطهر ؛ وفي طليعة هؤلاء ابو الطيب المتنبي

(١) لم يوفق كاتب المقال بين البيتين فالاول جاء مكسوراً والثاني مرفوعاً

الذي يقول :

خلقت ألوفا لو رجعت الى الصبا لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

وهذا غاية الجلال والوفاء عند اهل الوفاء ، فقد عاشر هذه الشيخوخة حتى الفها ، فهو لا يستطيع فراقها بعد هذه الالفة والصحبة ؛ ولو ارغم على تركها والعودة الى الشباب ؛ لفارقها باكيا متألما آسفاً !

وعاش آخرون عمراً مديداً ثم تمنوا الموت ، لا كرهاً للمشيب بل زهداً في الحياة بعد هذا العمر الطويل الذي تنعموا فيه ، وشاهدوا افراحه واتراحه ؛ فزهدوا في كل شيء ؛ حتى الحياة.

ومن هؤلا لبيد ، فقدعاش حوالي ١٤٥ سنة ، ورأى الجاهلية والاسلام وضجر من طول اجله ؛ فقال :

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف لبيد

واظهر السأم مرة أخرى فقال :

من حياة قد مللنا طولها وجدير طول عيش ان يمل

وكان يرغب في النهاية العاجلة ؛ وماذا في طول العمر غير الضعف والعجز ؟

وسؤال الناس كيف لبيد الذي عاصر الزمان والناس قرناً ونصف ؟ وماذا يستطيع هذا الرجل العاجز ان يفعل غير الحديث عن القرون التي مضت ، واخبار الناس الذين رآهم وعاصرهم فقال :

أليس ورائي ان تراخت منيتي ركوب العصا تحني عليها الاصابع

أحدث اخبار القرون التي مضت أدب كأني كلما قمت راكع

ومثل هذا السأم الذي نشاهده عند لبيد . ولمثل هذه الاسباب أيضا ، كان زهير يكره الحياة ؛ ويطلب انقضاء اجله ، حتى يستريح من طول البقاء ؛ وقد عبر عن ذلك بقوله :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا لا ابا لك يسأم

ولكن اجله طال ، وطال كثيراً حتى جاوز القرن .

فقال مرة اخرى يظهر ضجره وضيقه بالحياة :

ألم تزني عمرت تسعين حجة وعشراً تباعا عشتها وثمانيا

ثم استجاب الله دعاءه !

بقي علينا ان نقول ، بان هذه الظاهرة ؛ من حب الشباب وكره الشيخوخة ، موجودة عند كافة الناس ، والانسان بطبعه حريص على البقاء وطلب الفائدة ؛ ولكن حبنا للشباب ورغبتنا فيه ، يجب ان لا تجعلنا نبخس حق الشيخوخة ونجهل قدرها ، فيها حكمة التجارب ؛ وجلال الماضي ؛ وموعظة التاريخ .

ميلاد احمد فيه مولد يعرب

افق الجزيرة باسم متألق يبدو عليه للصباهج رونق

سحب الظلام تقشعت مهزومة مذ بان في الأفق الوليد المشرق

ارض الجزيرة وهي جد جديدة فيه استحالت وهي روض مونق

كانت شتاتاً قبل مولد احمد فيها يدب تخاصم وتفرق

حتى ترفق ذا الزمان بيعرب ولقد عهدنا الدهر لا يترفق

***

وافى الوليد لكي يعيد بناءها ولما ترجى في الحياة يحقق

الفت بطه منقذاً مما بها من فيه يلئم جرحها المتعمق

او كيف لا تزهو وقد وافى الذي فيه يؤلف شملها المتفرق

لم لا يفيض البشر من جنباتها وتعود تهتف بهجة وتصفق

لاغروان طفح السرور بوجهها او باتت الاكباد منها تخفق

او ليس في ميلاد احمد مفخر لجميع من بالضاد امسي ينطق

ميلاد احمد فيه مولد يعرب وبه ابتدا تاريخها المتألق

وعلى هداه العرب امست امة بين الشعوب لها المقام الاسمق

لقد ابتنى الهادي لها امجادها فازدان منها بالفخار المفرق

وبنوره قد ابصرت سبل الهدى عن افقها انبلج الظلام المغسق

مذ شرع الاسلام دين فضيلة ما فيه إلا رحمة وترفق

دين على العدل السوي مشيد خلدت مبادؤه فليست تخلق

حفلت لنا ذكرى ولادة احمد مسكاً بآفاق البسيطة يعبق

فيها نطالع سفر امجاد حوى عرفا له آنافنا تتشوق

تاريخنا الزاكي بها متمثل ما ضم إلا مفخراً يتألق

***

فعلام لم نقبس من الذكرى هدى منها يضيء لنا الطريق ويشرق

زغنا عن النهج الذي قد سنه ما ان تمسكنا به لا نخفق

مشت الشعوب الى الامام قوافلا فمتى بهاتيك القوافل نلحق

فيعود غصن الأمنيات ليعرب من بعدما قد جف فيها يورق

كي نستعيد مكانها بين الالى طافوا بآفاق الفخار وحلقوا

***

يا صاحب الميلاد هل من نفحة قدسية فينا شذاها يعبق

اعد الحياة ليعرب وابعث بها روحا تفوق به الشعوب وتسبق

عبد النبي الشريفي